مجلة العلوم الإنسانية — لمجلد 33 عدد 3 -ديسمبر 2022، ص.ص.493-509

القرآن الكريم وحياة اللغة العربية– رؤية في الترجمة والمعنى-

The Holy Quran and the life of the Arabic language
A vision in translation and meaning

تاريخ الاستلام : 2021/02/22 ؛ تاريخ القبول : 2022/04/13

محمد مباركي

جامعة العربي التبسي تبسة، الجزائر.

ملخص

إن التاريخ ليرصد السعي إلى المحاولات العديدة لترجمة القرآن الكريم إلى لغات عديدة ، فيظن أصحاب هذه الترجمات أن نصوص القرآن كبقية النصوص البشرية ؛ بألفاظها ومعانيها من وحي العقل البشري ، وقد أخطأ هؤلاء في مسعاهم مما انجر عنه حتما إلى تحريف نصوص القرآن وتبعثر لمعانيه هنا وهناك وهذا يؤدب إلى التقليل من شأن لغته وبلاغته وفصاحته ؛ فهده النصوص عندهم إنما هي منتوج ثقافي أفرزه العقل البشري ، أو هو منسوخ من كتب سابقة للقرآن تعالى القرآن - عن ذلك- وعليه فإن هذا البحث يهدف إلى إرساء مستقبل باهر للغة العربية كمقياس وحيد لفهم لغة القرآن وترجمته ، وإلى الإسهامات العلمية التي تراهن عليها اللغة العربية؛ امتدادا من مسارها الحضاري تحت راية القرآن حاملة لألفاظه ومعانيه ، وجهود العلماء الفاعلين المخلصين للقرآن وللغة القرآن.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ اللغة العربية؛ الترجمة؛ الوحي؛ اللفظ؛ التفسير؛ التأويل.

Abstract

History monitors the pursuit of the many attempts to translate the Noble Qur'an into many languages. The authors of these translations think that the texts of the Qur'an are like the rest of the human texts. With its wording and meanings from the inspiration of the human mind, they made a mistake in their endeavors, which inevitably led him to distort the texts of the Qur'an and scatter its meanings here and there, and this leads to underestimating its language, rhetoric and eloquence. These texts, they have, are a cultural product produced by the human mind, or it is copied from previous books of the Almighty Qur'an - about that - and therefore this research aims to establish a brilliant future for the Arabic language as the only standard for understanding the language of the Qur'an and its translation, and to the scientific contributions on which the Arabic language bets. ; An extension of its civilization path under the banner of the Qur'an, carrying its expressions and meanings, and the efforts of active scholars who are loyal to the Qur'an and the language of the Qur'an.

Keywords: The Holy Quran; Arabic language; Translation; Revelation; Pronunciation Interpretation; Hermeneutics.

Résumé

L'histoire surveille la quête des nombreuses tentatives de traduction du Noble Coran dans de nombreuses langues, de sorte que les propriétaires de ces traductions pensent que les textes du Coran sont comme le reste des textes humains. Avec sa formulation et ses significations tirées de l'inspiration de l'esprit humain, ces personnes ont commis une erreur dans leurs efforts, ce qui l'amena inévitablement à déformer les textes du Coran et à en disperser les significations ici et là ; Ces textes, pour eux, sont un produit culturel produit par l'esprit humain, ou il est copié de livres précédents du Coran Tout-Puissant, le Coran - à ce sujet - et donc cette recherche vise à établir un brillant avenir pour le La langue arabe comme seule norme pour comprendre et traduire la langue du Coran, et pour les contributions scientifiques sur lesquelles la langue arabe parie. Une extension de son chemin de civilisation sous la bannière du Coran, portant ses expressions et significations, et les efforts d'érudits actifs qui sont fidèles au Coran et à la langue du Coran.

Mots clés : Le Coran; Langue arabe; Traduction; Révélation; Interprétation de la prononciation; Herméneutiques.

* Corresponding author, e-mail: mbrmed56@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2022.

مقدمة

أبدأ مقدمتي هذه بإشكالية يطرحها المشككون في مصداقية اللغة العربية، وعلاقتها بالقرآن الكريم. ولِمَ يُربط دائما القرآن باللغة العربية، فكأن الأمر أصبح يحرجهم من منظور تاريخي وثقافي وعرفاني. ونقول على بركة الله إن علاقة اللغة العربية بالقرآن هي علاقة الماء بمنبعه، ولا شك لدى ذي كل لب وحلم أن القرآن هو المنهج الذي تدفقت منه العربية ولاسيما فيما بعد العصر الجاهلي؛ فلقد جاء القرآن بلغة ميسرة ملكت كل الألسنة وما فتئت هذه اللغة أن تنتقي مفرداتها من ركام المفردات التي جرت على الأفواه قبل القرآن، وحفل بها معجم الشعر الجاهلي ونثره، لكن في غياب التدوين اندثر كثير من الأشعار التي تلاشت لقصور الرواية والرواة، وتشتت القبائل، وضعف الاتصال بينها، وما بقي فهو راقد في بطون المعاجم؛ فلولا القرآن الذي أحدث نهضة لغوية في توسيع مفردات العربية وتطورها وازدهارها ما بقي من العربية إلا القليل، ولتشرذمت إلى عدة لغات بعدد لهجاتها كما جرى للاتينية، ولو سلمنا بمقولة (أبي عمرو بن العلاء) :" ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"، لو وقفنا عن هذا الحد ما بقيت عربية ولكن الله بعث قرآنا بث روحا وإكسير حياة لهاته اللغة فحماها ورشحها أن تنشر الإسلام وأن تعرب الأقطار، فلولا القرآن الذي حفظ في الصدور ودون في السطور ما بقي من العربية إلا القليل.

فالعربية التي نتكلمها ونكتبها هي بلا أدنى شك نبت القرآن وفصيله، كما أن ما عرفته العربية من تطور في مجال العلوم والمعارف المختلفة التي ابتكرها العرب وراجت في الآفاق قد تخلق فيها بفضل القرآن الذي ذخرت آياته بالكثير من الألفاظ المحددة الدلالة والتي أعدت بمثابة المصطلحات العلمية؛ فالذين يحفظون القرآن الكريم يظفرون في الواقع بميزة تحصيل ثروة لغوية، هي أكثر ما تعرفه لغتنا المعاصرة وهي أضخم ثروة يكتنزها حافظ القرآن والعامل به من أكثر ثروة يكتنزها غيره ولو كان حاملا أعلى الشهادات وأغزر الثقافات، فلقد أجمع العلماء على أن عدد كلمات القرآن (77439) وهي أكبر معجم للغة العربية على الإطلاق التي نزل بها القرآن، فأين لغتنا العربية التي نتكلمها ونكتب بها وتؤلف بها من هذا العدد الضحم؟ ! أليس هذا هو السر في علاقة اللغة العربية بالقرآن؟ ! أليس القرآن –إذا- هو منة منها الله على هاته اللغة لتمضي قدما إلى الأمام، وينزل القرآن موصوفا بها، تكريما وإجلالا لها في قوله تعالى:" **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونْ**" الزمر 28، " وفي قوله تعالى :" **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينْ**" الشعراء 195.وفي قوله تعالى " **وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينْ**" النحل 103، وفي قوله تعالى " **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ**" يوسف 2، وفي قوله تعالى " **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**" طه 113. وفي قوله تعالى " **كِتَابًا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونْ**" فصلت 3. وفي قوله تعالى"**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى" الشورى 7. وفي قوله تعالى"إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ**" الزخرف 3. وفي قوله تعالى" **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**" الرعد 37. وفي قوله تعالى" **وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا**" الأحقاف 12.

أبعد هذه الأدلة والشواهد يمكن لأصحاب الأهواء والتحايل أن يفصلوا بين القرآن والعربية؟ ! والله قرر ذلك في عشر آيات من القرآن الكريم، إلا من أعمته الضلالة واشترى الضلالة بالهدى، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

المبحث الأول: حد مصطلح "القرآن" بين المفاهيم المختلفة.

القرآن الكريم لغة:

ذهب العلماء في تعريف لفظ "قرآن" مذاهب شتى؛ فهو عند بعضهم غير مهموز "قُران" (تلفظه العامة هكذا تسهيلا) وذهب إلى هذا الرأي الإمام (الأشعري) والفراء أحد أئمة النحو المشهورين في الكوفة صاحب كتاب "معاني القرآن" والإمام (الشافعي)، وعند بعضهم فهو مهموز "قرآن" وذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم

الإمام (الزجاج) صاحب كتاب "معاني القرآن" و(اللحياني)، وعليه جاء تعريف القرآن على خمسة أقوال:

القول الأول: وهو قول (اللحياني): كلمة القرآن مشتقة من الفعل "قرأ" بمعنى تلا، فكلمة القرآن مصدر للفعل "قرأ" المرادف للقراءة؛ أي قرأ قراءة، بمعنى تلا تلاوة، فالقرآن والقراءة مصدران بمعنى واحد وهو التلاوة واسم المفعول مقروء، وذلك من باب جواز إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهو على وزن "فُعْلَانْ" كالبرهان والغفران، واستدل القائلون بهذا الرأي بقول الله تعالى **" لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" القيامة الآية 16-17-18.**

القول الثاني: وهو قول الإمام (الزجاج) إذ يقول: إن كلمة " القرآن" مشتقة من الفعل قرأ بمعنى جمع، تقول العرب: " قرأت الماء في الحوض أي جمعته"؛ فكلمة القرآن مصدر للفعل " قرأ" بمعنى جمع، فالقرآن والقرأ بمعنى الجمع فهما مصدران للفعل قرأ والقرآن هو جمع الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيب، وقال بهذا (الإمام أبو عبيدة)، وقيل لأنه جمع كل ما جاء في الرسالات السابقة، وذهب إلى هذا الرأي الإمام الراغب، وقيل لأنه جمع العلوم كلها بمعانيها ونزولا عند قوله تعالى: **" مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءْ" الأنعام 38**. فالقرآن هنا مصدر على وزن فُعلان، بمعنى الجمع وليس التلاوة، وبهذين القولين يكون أصل القرآن مصدرا مهموزا لأنه مشتق من الفعل " قرأ".

القول الثالث: وهو رأي الإمام (الأشعري) مؤسس مذهب الأشاعرة، حيث يقول :" كلمة القرآن مشتقة من الفعل " قرن" بمعنى ضم، فكلمة القرآن مصدر الفعل " قرن" يرادف المصدر " قرنا" أي ضما؛ فالقرآن والقرن مصدران بمعنى واحد أي ضم الشيء إلى الشيء، ويستدل في هذا الرأي على أن السور والآيات تقرن إلى بعضها بعضا أي تضم إلى بعضها بعضا.

القول الرابع: وذهب إليه الإمام (الفراء) وغيره من العلماء؛ إذ يقولون إن كلمة القرآن مشتقة من الفعل " قرن" ولكن بمعنى دل أو أشار إلى ، وهو يرادف المصدر قرينة، وجمعها قرائن، وقد علل العلماء قولهم هذا بما يلي:" أن آيات القرآن قرائن على بعضها البعض؛ أي دالة على بعضها البعض ومشيرة إلى بعضها البعض.

القول الخامس: وهو رأي الإمام (الشافعي) وغيره من العلماء، فهم يرون بأن كلمة القرآن أصل اشتقاقي فهي اسم خاص بكلام الله تعالى فوقع القول على أن كلمة القرآن قد وقع الارتجال فيها بإطلاقها على كلام الله النازل مثل كلمة التوراة والإنجيل والزبور؛ فالقرآن كلمة نزل بها القرآن هكذا (مصطلح رباني) وفهمها العرب دون أن يجدوا لها أصلا اشتقاقيا. فالقرآن عند (الشافعي) لم يؤخذ من " قرأ" ولو أخذ من " قرأ" لكان كل ما قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن كالتوراة والإنجيل، ثم يعلل ما ذهب إليه بقوله بأن العرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ القرآن من الفعل "قرأ" استخدموه بمعنى غير معنى التلاوة، فكانوا يقولون : هذه الناقة لم تقرأ سلًى بمعنى لم تحمل منقوحا قط، ولم تلد ولدا، ومنه قول الشاعر (عمرو بن كلثوم):

ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَدَمَاءَ بِكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأ جَنِيْنَا [1]

ويرجح (صبحي الصالح) قول (اللحياني) وهو أقوى الآراء وأرجحها، فالقرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة. ويرى بعض المفسرين أن منه أيضا قوله تعالى :**" الرَّحْمَنْ عَلَّمَ القُرْآنْ"** أي علم القراءة، وقال بأن أصل هذه الكلمة "آرامي" أخذها العرب وتداولوها نظرا لتأثير اللغات الآرامية والحبشية والفارسية في العربية؛ لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة، وأن هذه اللغات كانت منتشرة بكل بلاد فلسطين وسوريا وبين النهرين وبعض العراق، كما أن لليهود أثرا في العربية باعتبار أن لغتهم الدينية كانت الآرامية[2].

أما القرآن اصطلاحا: فهو كلام الله المعجز، المنزل على سيدنا محمد –صلى الله

عليه وسلم- المكتوب في المصاحف والمنقول عنه بالتواتر والمتعبد بتلاوته، وعرفه آخرون بقولهم: هو كلام الله العربي الموحى به، المنزل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز المتحدى به وبأقصر سورة منه[3]. إنه كلام الله المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه.

فتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الأصوليين الفقهاء وعلماء العربية ويشاركهم فيه المتكلمون أيضا؛ (فالكلام) جنس شامل لكل كلام، فإضافته إلى (الله) تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة، و(المنزّل) مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر؛ إذ ليس كل كلامه تعالى منزلا، بل الذي أنزل منه قليل من كثير، قال تعالى :" **قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" الكهف** 109.

وقوله تعالى " **وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله" لقمان 27.** ويقيد المنزل (على محمد) لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم عليهم السلام جميعا. وخرج (بالمنقول بالتواتر) جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة سواء أكانت مشهورة نحو قراءة (ابن مسعود) (متتابعات) عقب قوله تعالى " **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامْ" المائدة 89،** أم كانت أحادية كقراءة ابن مسعود أيضا لفظ (متتابعات) عقب قوله تعالى: " **وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرْ" البقرة 185**. فإن شيئا من هذا لا يسمى قرآنا ولا يؤخذ بحكمه وقيد (المتعبد بتلاوته) أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، لإخراج ما نأمر بتلاوته من ذلك كالقراءات المنقولة بطريق الآحاد وكالأحاديث القدسية المسند إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها[4].

المبحث الثاني: تاريخ القرآن الكريم واللغة العربية.

إن أخطر أبعاد تاريخ اللغة العربية هو ما عبر عنه الشيخ البشير (الإبراهيمي) "لغة ممتدة الجذور في الماضي، مشتدة الأواصر في الحاضر، وطويلة الأفنان في المستقبل، ذلك هو البعد الزمني للقرآن الذي وجد فيه المرجفون والمبطلون والمشككون من الأدعياء الخائضين في آيات الله، وفي تاريخ القرآن وفي موضوعات الفكر الإسلامي، وفي الفكر الإسلامي نفسه، يحرصون -كلما حوصروا- على تأكيد أنهم مناصرون للإسلام، وأنهم أعمق إيمانا من دعاته، وأن العلمانية هي جوهر الدين، رغم أن حقائق الثقافة المعاصرة تؤكد أنهم دعاة إلحاد وأن العلمانية هي فقط وجه يتسترون به عن مروقهم وخروجهم عن العقيدة السليمة، يتظاهرون بمصطلح "العلمانية" خداعا وكذبا ونفاقا، لأنه مصطلح أقل خطرا من الإلحاد"[5].

إن أخطر أبعاد هذا التاريخ هو البعد النفسي للعناصر المختلفة التي تواردت على مسرحه؛ فالمؤمنون الذين حملوا راية العقيدة دفاعا عن دين الله، والملحدون الذين أنكروا عليهم حقهم في تحقيق غايتهم، والمنافقون الذين لعبوا على الحبلين فكانوا أضر على الدين من الملحدين...، وتقلب الزمن وتموجه بكثير من المبادئ والفلسفات، ثم العصر الحديث وما قذف فيه الاستدمار من تيارات يتربع على قمتها الاستشراق وأتباعه، وبأشكاله المختلفة مظهرا المتوافقة حقيقة وهدفا للقضاء على مل ما يمت بالإسلام صلة ومنهجا وعقيدة وسلوكا، ظلمات بعضها فوق بعض ترد متتالية ومتناسقة ومنسجمة لتؤتي كثير من الكتاب الدارسين منها؛ ذلك هو شأن تاريخ القرآن، الذي أحجم عنه كثير من الكتاب الدارسين وأغمضوا أعينهم عن أسئلة كثيرة تثيرها دراسات الاستشراق، وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المُسَلَّمة، ويسوقون الماضي، الذي لم يكن يوما جزءا من تاريخهم، بمقياس حاضرهم ويغضون الطرف عن الطابع الغيبي (الميتافيزيقي)، الذي نشأت في ظله

أحداث التاريخ القرآني على عهد النبوة، فتضاربت آراؤهم وشدت أفكارهم عن طبيعة الأمور، فلو أن هؤلاء المستشرقين قيدوا محاولاتهم بمناهج النقد الإسلامية في انتقاء الأخبار والرواة لما خالفت أحكامهم أحكام علماء الإسلام، ولكتبوا القرآن تاريخا أنموذجا فيه الكثير من الصواب، والقليل من الزلل " **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ والله لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينْ" الصف .5**[6]

هذا من حيث كون المشكلة دائرة جول تاريخ القرآن، فأما من الوجهة الفنية فهي مشكلة تاريخ اللغة العربية الفصحى، وللقيام بدراسة لغوية في القراءات الشاذة مثلا ينبغي أن تتوفر الأمثلة والشواهد والشوارد، مما ينتمي إلى اللغة الفصحى القرشية، وما ينتمي إلى اللهجات (اللغات) الأخرى المقاربة لها في الفصاحة، فبالأمثلة الكثيرة الوارد يتضح الحال وينجلي الغبار عن كل المسائل المخفية أو الشائكة، فكثرة الأمثلة تمنح الباحث أو الدارس أو القارئ مزيدا من الطمأنينة في التفكير ومعرفة الحقيقة، كما يتسنى للبحث اللغوي الانتعاش، والقراءات هي صنو النحو، وهي أداء إلا أنها رواية، لكن توالي القرون عليها قد أحالها شيئا جامدا، والبحث اللغوي الآن يتجه إلى المعامل والمخابر، فعزل جانب كبير منها بتهمة الشذوذ، وهي محتواة لقضايا صوتية ولغوية ونحوية كثيرة، فهذه القراءات الشاذة وحسب رأي (شاهين) " هي سجل لكيفية النطق على مر العصور؛ فهو سجل للظواهر النطقية الحية، كما أنها محافظة على المأثور من طبائع اللسان العربي في الفصحى وفي لهجاتها[7] المستمرة إلى اليوم والمبثوثة في اللهجات المعاصرة، فمنها ما هو باق محافظ على فصاحته، ومنه ما سرت عليه اللحون فتغيرت أصواته واضطربت أبنيته، ومنه ما تلاشى نهائيا، وبقي قابعا في بطون المعاجم، أو بازدحام ألفاظ الحضارة والتكنولوجيا، فلم تعد الحاجة إليه ملحة.

غير أن الدارسين للعربية اقتصروا على العمل المعجمي في حصر هذه الموارد وما اتصل بها من فوائد أدبية، ولم يتجاوزوا هنا إلى الإفادة من دلالة هذه المواد في الكشف عن صفحات مشرقة من تاريخ العربية، فأعظم حدث في تاريخ العربية هو **القرآن الكريم**؛ ذلك لأن هذه اللغة الشريفة قد أمدت العربية بنمط خاص موحد صار هو العربية، بحيث انحسرت عن هذه اللغة أنماط كثيرة، فانصرفت إلى الغريب والشاذ والنادر، وهذا يعني أن العربية في حقبة ما قبل الإسلام، وفي العصر الإسلامي، وقد تتجاوز إلى شيء غير قليل من عصر بني أمية كانت لغات عربية وليس بمعنى ما يدعى اليوم ب (اللهجات)[8]، ففرق شاسع بين لهجاتنا اليوم، ولغاتهم ولو في بعض الاختلاف بين القبائل لأنها كلها حجة والقرآن نزل بها بصريح آياته.

ولعل الكثير –اليوم- يتساءل عن وجه الحاجة إلى دراسة القرآن في عصر طغت فيه التكنولوجيا وتقدمت العلوم أشواطا قياسية، والجواب أن لهذا الكتاب أهمية بالغة على البشرية قاطبة، وهو أول كتاب ظهر في تاريخ اللغة العربية وسلم من التحريف والتصحيف، فكان الراوي الوفي لحياة العقلية والفكرية والأدبية التي عاشها العرب من قبل وأصبح المنهج القويم لحياة البشرية قاطبة فيما بعد، فلم يستقم عود لغة بشرية على منهج سليم موحد مثل عود اللغة العربية بسر هذا الكتاب وتأثيره فضمن للغة العربية البقاء والحفظ؛ حيث كانت العربية قبل عصر القرآن أمشاجا من اللهجات المختلفة المتباعدة، وكلما امتد الزمن ازدادت هذه اللهجات نكارة وبعدا عن بعضها، ولم يكن هذا الاختلاف هينا يقتصر فقط على الأصوات (ترقيق، تفخيم، إمالة... إلخ) بل ازداد واشتد إلى الاختلاف في تركيب الكلمات ذاتها فقضاعة مثلا تقلب الياء جيماـ وتسمى عجعجة وحمير كانت تنطق ب "أم" بدل "أل" وتسمى طمطمانية، وهذيل كانت تقلب "الحاء" في كثير من الظروف اللغوية " عينا" وطيء كانت تستعمل "ذو" اسم موصول بدل " الذي" وهكذا كانت كل قبيلة تختلف في النطق عن الأخرى بوجوه كثيرة حتى باعد ذلك بين ألسنة العرب وأوشك أن يحول اللغة الواحدة إلى لغات عدة متجافية مثلما حدث للاتينية التي تفككت إلى لهجات متباعدة تحولت بدورها إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها، ولقد بلغ في تباعد هذه اللهجات العربية أن صار

الرسول –صلى الله عليه وسلم- يترجم لأصحابه ما تقوله الوفود القادمة من أماكن مختلفة ولقد أوتي جوامع الكلم.

فلما نزل القرآن وتسامعت به العرب وائتلفت عليه قلوبهم، أخذت هذه اللهجات بالتقارب وبدأت تضمحل مظاهر الخلاف وتذوب حتى تلاقت هذه اللهجات كلها في لهجة عربية واحدة هي اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن؛ فكان ذلك سر هذا السريان السحري في النفوس والقلوب والعقول، فأثر القرآن بذلك في شعر العرب وفي نثرهم، ولا تكاد بلاغتهم تنحط على معنى واضح متفق عليه وإنما بلاغة كل جماعة أو قبيلة ما تستسيغه وتتذوقه، ولذلك كانت المنافسات البلاغية تقوم فيما بينهم وتشتد ثم تهدأ وتتبدد، فكان القرآن إيذانا بميلاد مثلهم الأعلى وصيغتهم المثلى ونموذجهم الذي يُحتذى.[9]

المبحث الثالث: العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية.

بلغت اللغة العربية درجة راقية فأصبحت هي لغة الوحي والقرآن المنزل بخاتم الرسالات على خاتم أنبياء الله محمد –صلى الله عليه وسلم- وبلوغ العربية هذه الدرجة من الكمال حدث جليل تميزت به عربية القرآن في ألسنة قريش على أخواتها في الفصيلة السامية، فبقي القرآن بكمال لسانه وآيات بيانه في حين أصاب الكتب التي سبقته التحريف والتبديل.

لقد شاء الله أن يبقى القرآن الكريم محفوظا على مر الزمن بلسان عربي مبين، هداية لكل عصر ورحمة للعالمين، فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معا لكل اللغات، وكل البشر، ولسوف يظل الآية البيانية الصوتية والكونية، والعقلية بكمه الوافر (114 سورة) و (6236) آية، و (77934) كلمة، ثم إن هذا الكم القرآني قد ارتبط بالعربية ارتباطا وثيقا يتجلى به كماله اللغوي، على حين أن التوراة والإنجيل كانا بلهجتين من لهجات الفصيلة السامية هما العبرانية والآرامية، وقد يُطرح السؤال التالي: هل القرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربية أو أن اللغة العربية هي التي تحفظ القرآن؟ إن هذا السؤال ينفتح على حقائق كثيرة من الضروري الإلمام بها.

فالجزيرة العربية كانت مهدا للناطقين بهذه اللغة (العربية)، وكانت محاطة من كل جانب بوجود لغوي هائل من الفرس ومن الروم ومن الأحباش ومن الأنباط؛ والعرب في ذلك الحين كان وجودهم قبائليا باستثناء حاضرتي مكة والمدينة، وكان العرب أمة مفتنة في بيانها ظاهر جلي في أشعارها، وكان أكثر اعتمادها في الحفاظ على نتاج العقول وهو استخدام الحافظة في رواية القصص والأمثال والأشعار، ولقد كان أفضل ما يميز هذا الإنسان العربي في جزيرته أنه كان إنسانا فطريا لم تستهلكه أساطير موضوعه ولا حضارات قاهرة، لقد كان إنسانا يملك إرادته وبقية دين إبراهيم، ولغته الكاملة وبيانه الناقد، وقابلياته التي زوده الله بها ليزكيه بالكتاب، وليكمل له الدين، وليتم عليه النعمة بالإسلام.[10]

لقد كانت اللغة العربية الشغل الشاغل للعربي فهو يعكف عليها في مواسم الحج متفننا في تصريف القول بها- وانتقاء ألفاظها، وصقل أشعارها، وحفظ نصوصها فصار بها عربيا مبينا، ولقد ضمنت هذه الظروف للغة العربية نقاء من الشوائب، وبعدا عن التأثير اللغوي الأجنبي؛ فلم يتسلل إليها إلا الألفاظ المعبرة عن منتجات الحضارة كالإستبرق والسندس والزنجبيل والأساور والقيراط والفردوس وغيرها من الألفاظ التي وفدت (وتصرف فيها العربي بلطف الصيغة وحسن التأويل وقاسها على الميزان الصرفي لذلك غدت في القرآن وفي اللغة العربية عربية ناصعة صوتيا وصرفيا وتركيبا ودلالة)؛ بل إنها لترتبط ارتباطا وثيقا لا فكاك له بثقافتنا كلنا، بل إنها لتشمل ما هو أرحب من ذلك: تشمل بناء الإنسان العربي أو المسلم من حيث هو إنسان قادر على تذوق الجمال في الصورة والفكر جميعا.

هكذا سكن القرآن الكريم واللغة العربية كيان العربي في صحوه وحلمه، وفي منامه ويقظته لأن عكوف العربي على إبداع بيانه بالعربية بلغ درجة تقرب من التقديس

للغة، وأتاح لها ذلك فرصة نضج فني متقدم يتميز بالأصالة والنقاء، فاستحقت أن تكون وعاء لوحي الله وكلامه الحكيم، ومن ثم كانت المعجزة القرآنية التي تنزل بها لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغه إدراكهم، وما تتدبره عقولهم، فالألفاظ واحدة والمعاني واحدة، والأدوات واحدة، وأشكال التصريف واحدة، ولكن تشكيل الألفاظ والمعاني والتراكيب والإيقاع في الوحي الإلهي هو الآية العظمى فوق كل منال[11] . لذلك قال (الرافعي) " أوجد العرب اللغات مفردات فانية، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة[12]

ولعل خير ما يُساق في هذا الصدد عن علاقة القرآن بالعربية ما ورد في كتاب (تحت راية القرآن) للمغفور له مصطفى صادق (الرافعي) حيث قال:" والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب، إذ لو كان هذا أكبر أمره لاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غال ومبطل، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذرا للعوام والمستعجمين في إحالته إلى أوضاعهم.. إلى أن قال " إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما..، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأحبها عليهم لما أطرد التاريخ الإسلامي، ولتراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية..، فلا تتبين من آثارهم في أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء إذا انساب الجدول في المحيط"[13]

ويعلق (الرافعي) على حديثه هذا بأن معناه يؤدي بنا إلى تصور تأثير القرآن في هذه الأمة العربية، حين ألف الله به بين قلوب أبنائها، وهو يذهب عنها عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء، ثم هو بمحو ثارتها القبلية ويخلصها من الشرك ليحييها بالإيمان (لا بالعرقية ولا بالعصبية المنتنة)، وليزكيها ويطهرها بالكتاب والحكمة، وقد اجتباها الله لذلك، وأعدها لسانا وخلقا وقابلية.. فالقرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربية. وليست اللغة العربية هي التي تحفظ القرآن. ولقد سئل أحد الباحثين في جامعة أكسفورد بريطانيا عن مستقبل اللغات فرد قائلا: لن تثبت في سنة 2050 إلا ثلاث لغات: الإنجليزية، الصينية، والعربية"، فالقرآن حافظها وناصرها، فلا يمكن أن تتحقق نهضة جديدة في هذا الوطن العربي إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظا ومعنى وتلاوة وتدبرا ونصا وتطبيقا. خابت وخسرت أمة تنهض بلغة غيرها –هذا إذا نهضت- وتفتخر بلسان غير لسانها، وتتنكر لغة حباها الله واجتباها ورشحها لتحمل لواء الإسلام ويتلى بها القرآن آناء الليل وأطراف النهار، خابت وانتكست وكبت، فما نهضت وإنما رضيت بالارتكاس؛ مما فتح المجال واسعا للنيل من القرآن الكريم والحط من اللغة العربية نتيجة جهل الأبناء وكيد الأعداء.

المبحث الرابع: موقف المستشرقين والمستغربين من نصوص القرآن الكريم.

هذا الموقف له جذور تاريخية عميقة؛ فمنذ منَّ الله على البشرية بهذا الكتاب المبين **"الَّذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيِهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ" فصلت 42**. وخصوم هذا الكتاب وأعداؤه يكيدون له (نصوصا وأحكاما وتشريعا وعقيدة ولغة..) ويفترون على الله الكذب يدرون أو لا يدرون، حسدا من عند أنفسهم، فسخروا أفكارهم وأقلامهم وتعالت أصواتهم لتعلوا عن كل صوت قرآني وكشفوا من أبحاثهم، واستعانوا ببعض صفحات التاريخ المكتسبة، ويعود سر ذلك إلى ما يلي:

1- أن القرآن قدم حقائق تخالف ما جاء في التوراة والإنجيل خاصة ما تعلق بالتوحيد ونبوة عيسى عليه السلام.

2- أن القرآن أنكر وأبطل فكرة شعب الله المختار، وعقيدة الأقانيم الثلاثة وألوهية عيسى وقتله وصلبه، ومسألة الخطيئة والفداء.

3- أن القرآن اتهم الأحبار والرهبان بتحريف التوراة والإنجيل عن أصولها (وجعلوا نصوصها نصوصا بشرية تتفق وأهواءهم ومصالحهم الدنيوية)

4- أن القرآن صحح بعض الظواهر الفاسدة في المجتمعات الإنسانية كالرق والإقطاع والربا والزنا وقذف المحصنات وشرب الخمر والقمار..

5- أن القرآن (نظام حياة ومنهج سلام وأمن وحياة كريمة لكافة البشرية أعطى حلولا شافية كافية لمشاكل ومسائل عجزت اليهودية والمسيحية عن إبداء الرأي فيها مخافة الحرج وكشف الزيف والتحريف). تقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري) :" لقد أزال الإسلام السرية التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة"[14].

6- إعجاز القرآن في مبناه ومعناه، وفي أسلوبه وهديه لجميع الثقلين على امتداد الزمان والمكان.

انطلاقا من هذا شمر المستشرقون والمستغربون على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم الفكرية على محاربة القرآن ولغته العربية، وذلك لتحقيق أهداف كثيرة منها:

أ- الحيلولة دون تسرب مبادئ القرآن وأفكاره إلى بني جلدتهم فتفقد التوراة والإنجيل مصداقيتها ومشروعيتها (مثلما يظنون).

ب- التقليل من قيمة القرآن والتوهين من شأنه عند المسلمين حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الصليبية الغربية، والصهيونية العالمية، ولقد أشار (جلادسون) إلى هذه الحقيقة في قولته المشهورة :" مادام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون في أمان"[15]

ج- والتقليل من قيمة القرآن بأنه كتاب حوى مفردات العربية كلها ومثل لما نطقت به العرب على سجيتها، فالربط بين القرآن ولغته عملة ذات وجهين، لذلك فحفظ اللغة العربية مرهون بحفظ القرآن، فحياتها بحياته، فهمي تنمو به وتزدهر. وعلى هذا الأساس هم مرعوبون من هذه اللغة المستميتة والتي لا تزال تعيش معنا، ولخمسة عشر قرنا على الأقل بكل ألفاظها وأبنيتها وتراكيبها وبكل بلاغتها وفصاحتها وبكل معانيها حية ترزق آخرها يفهم أولها، فهي مستديمة حية بين ظهرانينا عكس اللغات الأخرى التي عرفت ميلادا ليس هو بالطويل، ولغات أخرى قد اندثرت وتلاشت، ولغات أخرى لا تزال شفهية ليس لها أبجدية تؤطرها، فأعداء العربية وخصومها من الداخل والخارج يعرفون ذلك جليا.

إن من أبناء جلدة العربية من يخاف من استعمال اللغة العربية فيسيء إلى سمعته، وذلك بإبعاده عن ثقافة الغرب العلمية التي هي أساس مستواهم ومرجع أبحاثهم، وهناك توجه آخر أن العربية لا يمكن أن تحيا بلا استعمال، ولا تبقى رهينة بطون الكتب، والشيء المعروف عالميا أن الإنسان يستطيع أن يستوعب بلغته الأم أضعاف ما يستوعبه باللغة الأجنبية مهما كانت درجة إتقانه لهاته اللغة.

د- وإذا رجعنا إلى الوراء فإن العرب –في جاهليتهم- كانوا يسعدون بلغتهم العربية ولم يرضوا بها بديلا، فبنوا بها قوميتهم وجعلوها عاملا من أقوى عوامل القوة في حياتهم؛ فلغتهم هي عامل وجودهم وحياتهم لذلك أبدعوا فيها فكانت بها أشعارهم التي ضاقت بها جزيرتهم ، ووسيلة تواصلهم بين الشمال والجنوب، ووسيلة نقل أخبارهم، لذلك عندما نزل القرآن لم يجدوا مشكلا كبيرا في فهم ألفاظه ومعانيه إلا نظرا لبعض الخصوصيات اللغوية (اللهجية عندنا اليوم)[16]

فمن هذا المنطلق فالعربية تمثل هوية العربي عبر التاريخ، فهي وحدها الكفيلة بترجمة القرآن لفظا ومعنى.

المبحث الخامس: ترجمة القرآن الكريم إلى لغات أخر.

تحدث العلماء –ومنذ عهد طويل- عن ترجمة القرآن، وقد تباينت آراءهم؛ فمنم من يجيز ذلك شرعا ومنهم من لا يجيزه، وبقي الأمر مفتوحا بما يتماشى ومقتضيات العصر، فضرورة العصر واحتكاك المسلمين بغيرهم ودعوة الآخر تحتم عليه أن يفهم القرآن بلغته الخاصة. وفي هذا الصدد يطرح الدكتور رمضان (البوطي) –رحمه الله- ثلاثة أسئلة مهمة:

أولا: هل في المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة أخرى؟
ثانيا: إذا كان ذلك مستطاعا فهل يجوز الإقدام على ترجمته شرعا؟
ثالثا: وإذا جازت شرعا فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلي، في التعبد بتلاوتها، وفي صحة الصلاة بها؟

والإجابة عن هذه الأسئلة –يقول (البوطي)- إنما يتعلق بلغة القرآن نفسها وأسلوبه، وخصائصه التعبيرية والبلاغية، هذا من جهة، وفيما يتعلق بموضوع الترجمة والفرق بينها وبين التفسير فكثيرا ما يقع اللبس والوهم بين الكلمتين على الباحث، وهما مختلفتان مبنى ومعنى، وإن وقع التوسع والتسامح فيهما عند إرادة المعنى اللغوي العام.

فأما الترجمة: فهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى عن طريق التدرج من الكلمات الجزئية إلى الجمل والمعاني الكلية؛ أي نقل معنى كل كلمة على حده، والتعبير عنها بكلمة مقابلة ثم تركيب مجموع الكلمات وتأليفها حسب المعروف في اللغة المترجم لها، ويسمى هذا الترجمة الحرفية.

أما التفسير: فهو نقل المعنى القريب أو البعيد المقصود من الألفاظ إلى لغة أخرى مختلفة، دون النظر إلى الألفاظ الجزئية التي تألف منها المعنى واتضح بها المقصود.

وانطلاقا من هذه الحيثيات فإن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى يصبح مستحيلا وإذا وقع ذلك –وهو واقع لا محالة- فهو تشويه لمعاني القرآن، وتلبيس للمقصود بغيره وتمزيق لأحكامه وحججه[17]

إن القرآن يتبع منهجا فريدا في التعبير عن المعاني، منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارئ، منهجا مطردا في كل نصوصه، فمنهج تعبيري كهذا يستعصى على الترجمة، فإن تم نقل معاني الكلمات كما هي فهي تؤلف معنى غير مقصود ولا صحيح إطلاقا[18]

إن الترجمة مهما تحرى أصحابها الدقة والإجادة، عاجزة عجزا كليا عن استيفاء المدلولات الكاملة لآي الذكر الحكيم، فضلا عن نقل ما في كتاب الله من الروعة والجمال، وما فيه من قوة التأثير في القلوب والنفوذ إلى العقول، فقد تعمد المترجمون من غير المسلمين إلى تشويه جمال القرآن وتقويض دعائم الإسلام، كما أراد آخرون أن يجعلوا من ترجماتهم مطية لبيان عقائدهم الشاذة، وآرائهم التي ينفردون بها معارضين مما كان عليه السلف الصالح، وما عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة. إن طبيعة الترجمة تأبى أن تكون أمينة ومستوفية، حيث إن كل لغة تمتاز في صياغة ألفاظها وتراكيبها النحوية التي تلبس الكلمات حللا في المعاني والأساليب البيانية مما لا يمكن نقله إلى لغة أخرى على الإطلاق، فكان الحل أن يُدعى كل من يريد فهم معاني القرآن إلى تعلم اللغة العربية التي خصها الله بالوحي الصادق حتى يفهم القرآن الكريم مباشرة، دون وسائط الترجمات.

المبحث السادس: إشكالية نقل المعنى في الترجمة (ترجمة القرآن).

القرآن نصوص معجزه لفظا ومعنى متحدى به فطاحل البلاغة والفصاحة، فإذا ترجمت معانيه إلى اللغات لم يبق من معانيه ما يمكن إطلاق القرآن على تلك المعاني المترجمة. ولتوضيح ذلك:

1- إشكالية نقل المعنى في الترجمة:

يبدو أن نجاح الترجمة أو فشلها كما يرى (e.cary) "يقاس في جزء كبير منه بمدى تحصيل المترجِم لمعنى الشيء المترجَم" وهذا مفهوم تكاد تتفق بشأن أهميته مختلف مدارس علم الترجمة. فهذا رومان ياكوبسون (r.Yakopson) يرى هو الآخر أن " كل تمثيل للدلالة هو بالضرورة ترجمة" ويرى كذلك جورج مونان(J. mounin أن الترجمة" هي مرور وليست شيئا آخر غير مرور معنى نص ما من لغة ما، إلى لغة أخرى".

وإلى أصوات هؤلاء يقول عبد النبي ذاكر " يمكن أن نضيف صوت الكاتب

الأرميني كلارك سورنيان (K. Sourinian) الذي يقول " وقبل الشروع في الترجمة لا مناص في الفهم الأمين للنص، وتحسسه تحسسا كليا وجزئيا"، لأن الذي يترجم لا يترجم من أجل أن يَفهم بل من أجل يُفهم؛ لأنه قد فهم قبل أن يُترجِم[19].

2- إشكالية المعنى في ترجمة القرآن.

لقد سبقت الترجمة الدينية الترجمة الأدبية في مختلف بقاع العالم؛ حيث بدأت بترجمة النصوص الطقسية(Liturgique) وكتب مقدسة كالتوراة والإنجيل، ومنذ غابر الأزمنة كانت الأديرة مراكز هامة للترجمة، وهي التي أفرزت نظرية الترجمة[20].

فشرط إجلال النص الرباني وتقديسه، وتأمل صنعته شيء وارد لنقل حمولته الدلالية إلى المتن المترجَم، ومتى لم يعرف المترجِم الوحي والكناية، والمثل والبديع، والكذب والصدق، والمجمل والمطلق، والمحكم والمتشابه، وحتى يعرف أبنية الكلام، فمتى لم يعرف المترجِم ذلك أخطأ في تأويل كلام الدين؛ فالنص القرآن يحتمل عدة قراءات (حمال أوجه) وبالتالي فهو يحتمل عدة معان وهذا يشير ضمنيا إلى أن الناقل لن يقدم ترجمة للقرآن ما لم يدرك جميع مراد الله وهذا يستحيل على البشر[21].

فالترجمة -إذا- تتم بنقل معنى من المعاني التي وقف عليها جمهور المفسرين والشراح، وإن لم تكن الإحاطة بكل المعاني العظيمة التي احتوى عليها اللفظ المنزل من حكيم حميد. ولهذا يقول الفقيه محمد الحجوي الثعالبي " ومن هنا نعلم أنه لا يمكن تطويق كلي مراد الله في نصوص القرآن وتجلياتها الدلالية والرمزية نظرا لتعدد الدلالات والتأويلات، وما الترجمة إلا قراءة، وقراءة واحدة لمستوى معين من مستويات النص المترجَم؛ بيد أنه بإمكان المرء القيام بنقل بعض معاني القرآن في ظل شروط الإيمان والتقوى والاحترام والتبجيل"[22] وفي ظل شروط النقل الصحيح والعقل الحصيف، كما فعل ابن العباس الذي دعا له الرسول –صلى الله عليه وسلم- "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". فالتقوى هي منبع العلم والمعرفة في سبر أغوار نصوص القرآن.

يظهر مما سبق أن إشكالية نقل المعنى القرآني ترتطم بعوائق منها العائق اللغوي الذي يعود إلى البنى المختلفة للغات، والعائق الثقافي مصدره الوقائع اللغوية، والعائق العقدي السليم.

ونقدم بعض الأمثلة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية:

قوله تعالى:**" وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" إبراهيم 4.**

« And we sent who messenger but with language of his people, so that he might explain to then» .[23]

1- مما يلاحظ أنه لا يوجد تناسب حتى في عدد الكلمات، فكلمات القرآن عددها (10) أما كلمات اللغة الإنجليزية فعددها (18).

2- نرى هنا أن الترجمة حرفية لا تفي بالمعنى المقصود.

ونسوق أمثلة أخرى من القرآن الكريم، يقول تعالى :**" وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا" الإسراء 29.**

ونحن نرى أن الألفاظ هنا ليس شيء منها يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية، وإنما هي تكشف عن المعنى بواسطة التصوير والتخييل، والأداة المستعملة لذلك جملة من المجازات والتشبيهات والاستعارات المختلفة، فكيف يمكن أن نترجم الآية ترجمة سليمة لا تفسد المعنى، ولا يخرج عملك فيها من الترجمة إلى التفسير ؟!..

ويقول تعالى **:" نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينْ" الواقعة 73.**

(فالمقوين) هنا تعني: الجائعين المقيمين في البيداء، المستمتعين، فكيف تتم ترجمة المقوين هنا لتعطي المعنى المقصود؟ !.

ويقول تعالى:**" لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزَفُونْ" الواقعة19**. وقد تفي بهاتين

الكلمتين جميع عيوب الخمرة من ذهاب بالعقل وإذهاب للمال. ونفاد للشراب، وتقزز من طعمه وحرقته، فكيف ستفي الترجمة بهذه المعاني كلها وتسلم من الخطل والاعوجاج؟ !.[24]

يقول (ابن قتيبة) في بيان هذا المعنى:

"... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله بالعربية،لأن العجم لم تتسع في المجاز إتساع العرب" ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى :" **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ" الأنفال 58.**

لم تستطع أن نأتي بهذه الألفاظ مؤدية عين المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها، فتقول إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضا، فاعلم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وأذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء.

وكذلك قوله تعالى :" **فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدَا" الكهف 11.**

فإذا أردنا أن ننقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه، فإن قلت أنمناهم سنين عددا لكنت مترجما للمعنى اللفظ، وكذلك قوله تعالى:" **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّروا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا" الفرقان 73.**

إن ترجمته بمثل لفظة "استغلق"، وإن قلت: لم يتغافلوا، أديت المعنى بلفظ آخر[25]. ومثل لفظة (يَمحق)، (ضنك)، (ارتكس)، (ضيزى)، (يُبَتِّكُنَّ)...إلخ فإنها ألفاظ دقيقة جدا مبنى ومعنى لها أبعاد دلالية خطيرة، فلا يمكن لأية لغة أخرى أن تُدرك كنهها ومعناها سوى العربية.

ويواصل (ابن قتيبة) قائلا[26] :"فإذا أدركت أن ترجمة القرآن غير ممكنة بمعناها الصحيح، علمت الجواب؛ ذلك أن الشيء الذي لا يستطاع إنجازه يعد باطلا من حيث وجوده، ويعد محرما من حيث ممارسته لما فيه من الفساد والإفساد" ومن ثم لا يصح التعبد بالمترجم له، ولا تصح الصلاة به، لأن الصفة القرآنية تزول وتضمحل، ويبقى الجانب اللفظي المقابل لمبنى دون المعنى المقصود، فلا ريب أن ينطوي عليه القرآن من دلالات تراكيبه وعباراته وجمله وآياته، فهو في الحقيقة نابع من دلالة كلماته ومفرداته، وقد أشبع المفسرون –قدامى ومحدثون- تراكيب القرآن وصوره بحثا وتحليلا، ودرسوا تشبيهاته واستعاراته وكناياته ومجازاته، كما درسوا الصور الجزئية والصور الكلية والمشاهد التصويرية التي تستحضر أهوال القيامة قصدا إلى بيان إعجاز القرآن"[27]. فلماذا -إذا- تقاعس المسلمون عن خدمة دينهم والذود عن لغة قرآنهم.

وعلى هذا الأساس تبطل (ترجمة القرآن) من أصلها لسبب ظاهر أشد الظهور –في رأي مالك بن نبي- لأن البشر إذا لم يك في طاقاتهم بألسنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها أن يأتوا ببيان كبيان القرآن، تدل تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان البشر، فمن طول السفه وغلبة الحماقة أن يدعي أحد أنه يستطيع ترجمة القرآن، فيأتي في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر وإلا لم يك لهاته الترجمة معنى، بل سيكون فيها من القصور والتخلف ما يجعل القرآن كلاما كسائر الكلام، لا آية فيه ولا حجة على أحد من العالمين.[28]

المبحث السابع: واجب الأمة نحو قرآنها ولغة قرآنها.

يستمد المسلم بناء شخصيته من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويظهر ذلك في " معنى انتمائه إلى الإسلام".

إن كثيرا من الناس مسلمون بالهوية، أو مسلمون لأنهم ولدوا من أبوين مسلمين، وهؤلاء وأولئك لا يدركون في الحقيقة معنى انتمائهم للإسلام، ولا يعرفون مستلزمات هذا الانتماء، ولذلك فهم في واد والإسلام في واد؛ إن ما تجدر إليه الإشارة في هذا

المقام أن كل الأحداث التي تجري في العالم الإسلامي بوجه عام وفي المنطقة العربية بوجه خاص، تؤكد حقيقة كبرى وهي أن الأمة تعيش فراغا قاتلا في شتى نواحي حياتها:

أولا: في عقيدتها:

1- إن أول شرط من شروط الانتماء إلى الإسلام والانتساب لهذا الدين أن تكون عقيدة المسلم سليمة صحيحة، متوافقة مع ما ورد في الكتاب والسنة، (فلا تشوبها عقائد أخرى دخيلة ولا أفكار معوجة ولا فلسفات تأتي من هنا ومن هناك تكدر صفوة العقيدة الصافية).

2- وأن الإيمان بالخالق -جل شأنه- لم يخلق هذا الكون عبثا ولا سُدى **" أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونْ" المؤمنون 116.**

3- وأنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة، يأتمرون بأوامره وينتهون عما يخفي عنه **:" وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونْ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونْ" الذاريات 56.**

4- وأن التشريع هو حق لله وحده لا ينازعه فيه أحد، وأنه يمكن للعلماء المسلمين أن يجتهدوا في استنباط الأحكام في إطار ما شرعه الله **" وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبْ" الشورى 10.**

5- وأن العبادة لله وحده لا شريك له استجابة لدعوة الله على مدار الرسالات والرسل **:" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتْ" النحل 36.**

" وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينْ" آل عمران 85.

أي كل مقتضيات كلمة " دينا" فهو نظام حياة ومنهاج، وهو معاملة وسلوك، وهو أخلاق واستقامة وهو حمد وثناء، وهو ارتباط وثيق بين المسلمين ورحمة العالمين.

ثانيا: في عبادتها:

فالعبادة هي نهاية الخضوع وقمة الشعور بعظمة المعبود، وهي مدارج الصلة بين المخلوق والخالق**" وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءْ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُوتُوا الزَّكَاةَ" البينة .5**[29]

ثالثا: في أخلاقها:

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي لرسالة الإسلام كما يعبر عنه الرسول –صلى الله عليه وسلم- " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" أخرجه أحمد وغيره.

فالخلق الكريم هو دليل الإيمان وثمرته، ولا قيمة لإيمان دون خلق حسن، سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- "ما الدين؟ قال : حسن الخلق، وسئل ما الشؤم؟ قال سوء الخلق"، فالخلق أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة- فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- قوله :" من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا" رواه الطبراني.

فمن أهم الصفات الأخلاقية: التورع عن الشبهات، وغض البصر، وصون اللسان والحياء، والحلم والصبر، والصدق، والتواضع، واجتناب الظن والغيبة وتتبع عورات المسلمين، والجود والكرم، فإذا اجتمعت هذه الصفات كلها تثمر الأخلاق القرآنية، لذلك سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول –صلى الله عليه وسلم- فقالت:" كان قرآنا يمشي على الأرض"[30].

رابعا: في معاملتها:

الدين المعاملة كما ورد في حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم- والمعاملة تشمل كل جوانب حياة الإنسان مع والديه مع أسرته مع أبنائه، مع جيرانه، مع شركائه، مع مدرسته، مع طلابه، وكل من تربط بينه وبينهم مصلحة دينية ودنيوية، لذلك انتشرت

دعوة الإسلام في كثير من بقاع الأرض بالمعاملة الحسنة مع أهل هذه البقاع، فلم يروا غشا في تجارة ولا تطفيفا في ميزان ولا كذبا في قول ولا نفاقا ولا زورا ولا بهتانا، فرأى أهل هذه البقاع إسلاما يتجسد في تحركات أصحابه وتعاملاتهم مع غيرهم كماليزيا وإندونيسيا، وبلدان جنوب شرق آسيا بصورة عامة.

فإن اكتملت العناصر الأربعة فتلك هي شخصية المسلم.

ومن مظاهر شخصية المسلم كذلك التحدث بلغة القرآن؛ وذلك لأسباب أجمع عليها أهل العقول السليمة:

أما السبب الأول: فهو وجوب التعلم والتحدث باللغة العربية فإنها لغة القرآن، وما كان الله ليختارها لكتابة ولنبيه إلا أنها أم اللغات.

والسبب الثاني: أنها لغة النبي –صلى الله عليه وسلم- وبها يُفهم الدين ويبلغ للعالمين.

ويؤكد ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بقوله :" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد، وأنها اللغة التي انتشر بها الإسلام، وتعلم بها الناس شريعتهم وعقيدتهم وفهموا بها مقاصد قرآنهم.

السبب الثالث: أنها لغة العلم والبيان والحضارة، فهي لغة الرياضيات والطبيعيات والفلك، والطب والصيدلة والزراعة وغير ذلك من العلوم التي ابتكرها العرب وأبدعوا فيها، فهذه اللغة هي أساس حضارة المسلمين وجمال ثقافتهم النقية وفكرهم الصافي الأصيل والناضج، فالتعلم بها ضمان المعرفة الجامعة بين علوم الصنائع والحرف والتقنيات، وبين علوم الإنسانيات والقيم والأدبيات، والتحدث بها برهان على الشخصية المتجملة بلسان الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم-.

فمن الظواهر السلبية المقيتة والمسيئة للشخصية الإسلامية، والمسيئة للعلم والدين، تلك الظاهرة التي طغت على سطح بعض أنحاء المجتمع العربي الإسلامي وهي: تخاطب المسلمين بالعامية المزيجة بكلمات أجنبية ، مما نتج عنه لغة أمشاج مقطوعة الرحم، أو تخاطب، خاصة الفئة المثقفة بالفرنسية عندنا في بلاد المغرب العربي أو بالإنجليزية في بلدان المشرق العربي، مشافهة وكتابة؛ فالعامية لا تنتج ثقافة واللغات الأجنبية البديلة للعربية لا تنتج تقدما ولا ازدهارا ولا نموا.

فبهذه الغربة اللغوية يظل الناس بعيدين كل البعد عن فهم القرآن والدين، والأعجب من ذلك أن المدرسين في مدارسهم أو في جامعاتهم يدرسون بالعامية ويتهربون من اللغة الفصحى ولغة القرآن، لغة الإعراب ولغة البيان.

إن بعض الأمهات يلقن أولادهن أول ما يبدأ النطق اللغة الأجنبية قبل أن يحفظ سورة الفاتحة، وهذا أمر عجيب فعلا، والفكرة السائدة عند هؤلاء أن اللغة الأجنبية هي لغة التقدم والحضارة، وأن هذا الأجنبي هو الأفضل والأرقى، ولقد صدق ابن خلدون في قولته المشهورة:**" المغلوب مولع بتقليد الغالب في كل شيء"** فلن يستطيع المسلمون عامة والعرب خاصة استرجاع السيادة الكاملة إلا بفهم القرآن والعمل به، وهذا لا يتم إلا باللغة العربية.

فمن الأخطاء التي تصيب المجتمع المسلم العربي في حال الإصرار على هجر لغة القرآن:

1- يظل التعليم بغير العربية تعليما معلوماتيا بعيدا عن التحضر والتحدث المتلازم بين التكنولوجيا والقيم الإنسانية، وتبقى الأجيال غريبة عن القرآن وعن لغة القرآن غرباء في قرآتهم وفي لغة قرآنهم.

2- استعمال العامية أو أي لغة أجنبية يكرس بناء العصبيات الشعوبية والنعرات الهوياتية والنكوص إلى الوراء، والبحث في الجذور التي طواها الزمان بينما اللغة الفصحى نراها عبر التاريخ قد وحدت وجمعت فلهج بها الفارسي والقبطي والحبشي والبربري ..إلخ .

قال أحمد (شوقي) من الوافر:

وَنَحنُ في الشَرقِ وَالفُصحى بَنو رَحِمٍ وَنَحنُ في الجُرحِ وَالآلامِ إخوانُ

قال تعالى:" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا" آل عمران 103.

ورد في كتاب "سياسة الائتلاف لإقامة وحدة المسلمين"ط2- (2014)، ص(334) وما بعدها :" لغة القرآن الكريم ثابت من ثوابت الأمة، ولا يتنكر لها إلا المنسلخ من شخصيته، والرافض لعزة نفسه ووطنه وأمته، وهي عامل من العوامل الأساسة التي تجمع الشعوب والقبائل والعشائر والفصائل في رحاب الوحي وأنوار العلم والإيمان **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" الحجرات 13.**

فالأفضلية هنا في التقوى والعمل الصالح التي يلتقي عليها الجميع، فلا فرق لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، والعمل الصالح وفي نفس الكتاب المذكور ورد قول الشيخ إبراهيم (أبي اليقظان) رحمه الله " إن اللغة العربية ليست لغة قومية خاصة، ولا لسان فئة مميزة، بل هي لغة عالمية عامة لأنها لغة دين عالمي عام ألا وهو الإسلام".

وقال محمد علال (الفاسي) رحمه الله:"

إلى متى لغة القرآن تُضطهد ويستبيح حماها الأهل والولد
أما دروا أنها في الدهر عدتهم ومالهم دونها في الكون ملتحد
ولن تقوم لهم في الناس قائمة أو يستقيم لهم في العيش ما نشدوا
إن لم تتم لهم في الضاد معرفة أو يكتم لهم بالضاد معتقد
إن العقيدة في الأوطان ناقصة ما لم تكن للسان الضاد تستند

فأين نحن أهل الإيمان من لغة القرآن؟ هل نحن حريصون على تعليم أولادنا لغة القرآن ولغة الدين، ولغة الحضارة، ولغة آدم عليه السلام الذي علمه الله الأسماء كلها[31].

المبحث الثامن: جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن ولغته.

عُنِيَ أسلافنا باللغة العربية لغة القرآن عناية فائقة، واهتموا بدراستها اهتماما بالغا، فنشأت في ظل محاضر تحفيظ القرآن للصغار والكبار والزوايا المنتشرة في كل ربوع الوطن، ولاسيما جمعية العلماء التي تعد المؤسسة الشرعية والفعلية بجميع فروعها في أرجاء الوطن، تقوم بنهضة فكرية وعلمية وأدبية تصحح الأفكار النشاز وتنشر الوعي، وتحارب البدع والخرافات على يد علمائها الأجلاء الذين ملؤوا الدنيا، ولقد شارك أبناء الجزائر في تلك الحركة الدينية والأدبية واللغوية إسهام غيرهم من المشارقة والمغاربة، فازدهرت في الجزائر عدة علوم لغوية، وبرز فيها عدد لا يُحصى من العلماء أمثال: يحيى بن عبد المعطي (الزواوي) (ت628ه) صاحب أول ألفية في النحو والصرف، (ابن آجرُّوم) (ت723ه) نحوي مشهور صاحب الآجرومية، ومحمد بن يوسف (أطفيش) صاحب التآليف اللغوية الكثيرة، والشيخ (ابن باديس) صاحب التفسير المشهور للقرآن، ومنهم محمد البشير (الإبراهيمي) الفقيه اللغوي، ومنهم محمد الصالح (الصديق) صاحب كتاب مقاصد القرآن، الكتاب الذي ذاع صيته في الأوساط العربية الإسلامية، وموسى (الأحمدي) العروضي البارع وكتابه المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي الذي أعد مقررا في كثير من الجامعات العربية، والشيخ عبد الرحمن (شيبان) الذي أجاد وأفاد في التربية والتعليم، والدكتور عبد الرحمن (الحاج صالح) عالم اللسانيات. وقد ترك منجزا عملاقا (الذخيرة العربية) وهو ينتظر من يجسده في الواقع.

قد ترك علماء الجزائر الذين لا يمكن يُحصوا عددا مؤلفات لا يستغني عنها طالب العلم في شتى العلوم الدينية واللغوية والأدبية، غير أن تلك الجهود لم تنل بعد ما تستحق من تعريف وتقييم، ومن تحقيق ونشر، فمتى يُنفض الغبار ويُكشف الستار عن أعمال هؤلاء القيمة وتقييمها التقييم الوافي وإدراج أصحابها في مصاف العلماء

المعروفين وطنيا وإقليميا وعالميا؟ !.

ويستطيع المطلع على أشغال ملتقيات الفكر الإسلامي في كل فترة السبعينيات حتى نهاية الثمانينيات التي كان حضور العلمانيين والمستشرقين فيها قويا، مستميتين في طرح أفكارهم وعقائدهم، وفي نهاية المطاف حقق هؤلاء ما أرادوا وأوقفوا تلك الملتقيات التي ملأت شهرتها الآفاق وكانت شامة في جبين الجزائر، ولا تزال الأقلية العلمانية ناقمة عليها إلى الآن؛ لأنها كانت محطات علمية وإيمانية ربطت الأمة بإسلامها ولغة قرآنها وأصالة شعبها وتراثه التليد؛ هذه الملتقيات مكنت الشباب من النهل من فحول العلماء والاحتكاك بهم ومحاورتهم والتعلم منهم.

ومن المعلوم أن اللغة العربية هي لغة عالمية استمدت عالميتها من عالمية الدين الإسلامي الرحمة للعالمين، واستمد شعاعها من نور القرآن الكريم؛ فهي اللغة الوحيدة للوحي الإلهي الباقي على ظهر الأرض، فتعلم اللغة العربية وتعليمها فرض على المدرسين العرب وعلى المجامع والمعاهد اللغوية التي خصصت لذلك؛ لأن القرآن لا يسمى قرآنا إلا بها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها.

تتميز لغتنا العربية بأنها راسخة في الجبال تضرب بجذورها في عمق التاريخ العربي والإنساني، فهي المدخل المهم لفهم كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم-. جاء في قوله تعالى **" كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونْ" فصلت الآية 3.**

فمن المعلوم أن اللغة العربية هي التي حملت رسالة الإسلام إلى كل بقاع المعمورة، ومنها الشمال الإفريقي الذي انسالت على ألسنة سكانه لغة قرآنية سرعان ما ترسخت في التخاطبات اليومية، واندمج فيها قواد خاضوا معارك وفتحوا فتوحا أمثال القائد طارق بن زياد في خطبته المشهورة التي لا تزال محل نقاش عند الكثير من المشككين في أصله ؛ ولو يعرفوا بأن للغة العربية سحرا وبيانا لا يوجد مثله في لغات أخر.

وشهد شاعر النيل (حافظ) إبراهيم بذلك في قصيدته الرائعة على لسان العربية قائلا:"

وسعت كتاب الله لفظا وغاية	وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا	فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيهجرني قومي عفا الله عنهم	إلى لغة لم تتصل برواة

لقد سبق وأن أشرت إلى جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وأهدافها المنشودة :" فلقد كتب الله لجهود ابن باديس في ميدان التعليم المسجدي أن تثمر، لأنه لم يدخر جهدا في خدمته والدفاع عنه، فقد كان منذ السنوات الأولى بالجامع الأخضر يرسم أفقا بعيدا لهذا التعليم الذي تمثل في تفكيره بجعله نواة لكلية إسلامية في الجزائر على شاكلة الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب. يقول في هذا الشأن (ابن باديس):" لابد من كلية دينية يتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلمون الأمة أمر دينها"، فقد كان ابن باديس ينظر إلى من كان معه من مدرسين في المساجد لما يملكون من كفاءة أن يكونوا معهدا علميا يكون نواة لكلية إسلامية في الجزائر، ومن هذا التطور الفكري لابن باديس أنشئت مدارس في الثلاثينيات كمدرسة الحديث بتلمسان ومدرسة تهذيب البنين والبنات بتبسة، واستمرت الجمعية بعد وفاة مؤسسها على تأسيس المدارس والاعتناء بالتعليم المسجدي، وكان إقبال الطلبة عليها كبيرا.[32] إلى يوم فرض الاستعمار الغربي الغازي على مدارسنا منهجا في الدراسة لا يقوم على أصل صحيح؛ كان يرمي في نهايته إلى إضعاف دراسة العربية إضعافا شائنا لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقاها الشباب في التربية والتعليم بمختلف المراحل ثم تضاعفت الشناعة حين عُزلت اللغة العربية كلها عزلا مقصودا عن كل علم وفن، وأصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس إضافي ثقيل وبخاصة على نفوس الشباب

الغض.[33]

الخاتمة:

وعليه فإنه يطرح السؤال التالي: بم انتصر المسلمون؟ وبم حققوا مجدهم التليد؟

انتصروا لما تمسكوا بالقرآن وطبقوا مبادئه وأحكامه بعد أن فهموه فهما دقيقا، فأنشأ منهم خلقا جديدا غير النفوس والقلوب والعقول وحررها من الوثنية ظاهرها وباطنها، وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وأنشئوا دولة كبرى وأعلوا كلمة الله في الأرض حقا وصدقا، فمكن اللهم لهم وعمروا الأرض عدلا وإنصافا وصدق عليهم قوله تعالى :**" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونْ" الأنبياء 105**، وانتصروا لما وعوا لغة قرآنهم، وعلموهم لغير الناطقين بها ليفهموا معاني التنزيل، وشريعة الدين بلسان عربي مبين، فأصبح الجميع بنعمة الله إخوانا عقيدتهم واحدة، ولسانهم وحد، وإن تنوعت لهجاتهم فهي ثراء ونماء للغة القرآن، فصار الكل تحت حكم الواحد وانصهر الجميع تحت راية واحدة (الإسلام) يلهجون بلسان واحد لنشر الدين وخدمة العلوم والمعارف، فكانت الحضارة وكانت المدنية وكان التطور تباعا لهدي الكتاب وهدي السنة وهدي العلماء الأجلاء، وقد ترك هذا كله بصماته التي لا تمحى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويطرح السؤال نفسه على الوجه المغاير: بم انهزم المسلمون؟

انهزموا لما بدأ الخط البياني ينحدر رويدا رويدا وتنحرف الدولة الإسلامية عن مسارها الصحيح، ويأخذ الفكر الارجائي بعده موازيا الفكر الصوفي الموغل في المغالات، عندئذ وجد أعداء الإسلامي –من الداخل والخارج- ثغرات كثيرة سمحت لهم بالولوج للاستعداد لضرب المسلمين في عقر دارهم، لأنهم فقدوا المناعة والقوة بعدم الثقة بنصوص قرآنهم التي اقتسمتما الفرق والمذاهب وكل أول لصالحه **" هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُومِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدَا" الأحزاب11**. كما فقدوا الثقة في لغة القرآن ورضوا بغيرها بديلا . والسؤال الآخر الذي يطرح: متى يستفيق المسلمون –حاكما ومحكوما- من هذه النكسة وهذا النكوص؟ وهذه الخيبة التاريخية التي توسعت هوتها؟

لذلك ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ !

نقدم في هذا البحث بعض النصائح:

1- برمجة حصص رسمية للقرآن الكريم حفظا وتلاوة وأحكاما وفهما وتدبرا في المدارس وفيالجامعات يراعى في هذا المستوى (العمري والتعليمي).

2- تزويد الطلاب بالثروة اللغوية المستمدة من القاموس القرآني الثري وروائع الشعر العربي.

3- تكوين مدرسي اللغة العربية على الخطاب اللساني في الفصيح مع طلابهم (مشافهة وحوارا وكتابة).

4- كما يمكن إعادة النظر في سياسية القبول في الجامعات وذلك بوضع شروط للراغبين في الالتحاق بأقسام اللغة العربية حتى تتمكن القدرة اللغوية من الألسن وتوطينها على آداء الكلام العربي الفصيح. فإن امرءا يقتل لغته وبيانها، وآخر يقتل نفسه لا سيان، والثاني أعقل الرجلين.

5- يجب اختيار مدرسي اللغة العربية حسب الكفاءات والمؤهلات العلمية والبيداغوجية والنفسية يجيز ذلك ويصادق عليه علماء أجلاء ذوو اليد الطولى.

بهذا لعلنا إذا كنا جادين أن نضع العربة في سكتها الصحيحة.

الهوامش والإحالات:

1 - (الصالح) صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط11، سنة 1979، ص18-19، و(ابن منظور)، لسان العرب، مادة (ق ر أ)، دار صادر، لبنان، بيروت، ط1، سنة 2000، 50/12 وما بعدها.
2 - نفسه ص19.
3 - نفسه، ص21.
4 - (عرفة) عبد العزيز عبد المعطي، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، لبنان، بيروت، ط1، سنة1985، ص26-27.
5 - (شاهين) عبد الصبور، تاريخ القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، سنة 2007، ص5.
6 - نفسه، ص7-8-9.
7 - (شاهين) عبد الصبور، تاريخ القرآن، مرجع سابق، ص10.
8 - (السامرائي) إبراهيم، في شعاب العربية، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، دار الفكر، دمشق، سوريا. ط1، سنة 1990، ص163.
9 - مداخلتي في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس 5)، جامعة مالايا، ماليزيا، بعنوان: القرآن الكريم والتحديات العصرية، 5و6 ماي 2015، ص1.
10 - (شاهين) عبد الصبور، عربية القرآن، مكتبة الشباب، مصر، القاهرة، (دط)، (دت)، ص67، 72،75.
11 - شاهين، عربية القرآن، مرجع سابق، ص76.
12 - (الرافعي) مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (دط)، سنة2005، ص46..
13 - شاهين، عربية القرآن، مرجع سابق، ص78.
14 - لورافيشيا: دفاع عن الإسلام، ترجمة: منير البعلبكي، ط5،سنة 1981، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص47.
15 - جلادسون: الإسلام على مفترق الطرق، نقلا عن محمد أسد، ترجمة: عمر فروخ، ص39.
16 - مجموعة من الباحثين، اللغة العربية، أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، سنة 2005، ص12،11.
17 -(البوطي) محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، دار الفارابي للمعارف، (دط)، سنة 2007، سوريا، دمشق، ص260، 261.
18 - نفسه، ص262.
19 - ينظر: عبد النبي ذاكر: مدارات الترجمة، منشورات مشروع " البحث النقدي ونظرية الترجمة"، الإصدار الثامن، ط1، 2009، فاس، المملكة المغربية، ص130.
20 - المرجع نفسه، ص130.
21 - ينظر: بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط3، 1980، 465/1.
22 - بنظر: عبد النبي ذاكر، مدارات الترجمة، مرجع سابق، ص 131.
23 - (الندوي) عبد الله عباس، تعلم لغة القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1979، المقدمة ص1.
24 - (البوطي)، من روائع القرآن، مرجع سابق، ص262-263.
25 - (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله ابن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد سفر، مكتبة دار التراث، القاهرة، (دط)، سنة 2006، ص80،70.
26 - نفسه، ص81.
27 - (شاهين) عربية القرآن، مرجع سابق، ص84.
28 - ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دط، 1986، ص48.
29 - (يكن) فتحي، ماذا يعني انتمائي للإسلام، مؤسسة الرسالة، ط1، 1977، بيروت، ص17-18،27.
30 - (يكن) فتحي، ماذا يعني انتمائي للإسلام، مرجع سابق، ص37-38.
31 - (مكركب) محمد، شخصية المسلم بين لسان كتابه وحب نبيه واحترام أمته، جريدة البصائر، العدد953، سنة 2019، ص15.
32 - جريدة البصائر، التعليم الإسلامي الحر في شمال إفريقيا، العدد949، سنة 2019، ص20.
33 - ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص47.